مقالات في التاريخ المسيحي – القرن الثالث الميلادي – المقالة الثالثة

الغنوسية

قبل أن نبدأ في سرد أحداث القرن الرابع ينبغي لنا أن نعرض بدعة أقلقت الكنيسة كثيراً. لم تكن نيران الأضطهاد هي التي تتعب الكنيسة فقط بل كان التعب أيضاً من الداخل فكما قال بولس الرسول : "..... بأخطار من إخوة كذبة" ٢ كورنثوس ١١: ٢٦ فجاءت بدعة الغنوسية لمحاولات خلط الإيمان بالمنطق وإخضاعه للعقل حتى يكون مقبولاً للفهم. ونسوا أن الأيمان " .... هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى" عبرانيين ١١: ١ فالإيمان مستوى أعلى من الحواس. لا يعتمد عليها ولا يحتاج إليها ليُفهم ، فأخضاع الإيمان للعقل والفهم معنا ضياع الإيمان ذاته كمعنى.

جاءت الغنوسية – بعيداً عن أيمان كنيسة الرسل – بمحاولات لخلط المسيحية باليهودية والديانات الفرعونية القديمة والعبادات اليونانية لتكون صورة – أو صور متعددة – لعقيدة معقولة ومفهومة ، قريبة من الديانات الوثنية المتواجدة فعلاً في هذه القرون الأربعة الأولى. فحاول الغنوسيون هم أصحاب المعرفة وبها يعرف الإنسان أصوله ويعرف من هو وكيف يخلص.

ترجع الغنوسية تاريخياً الي بداية المسيحية – كانت تعاليم سيمون الساحر أو Simon Magus ساحر السامرة (أعمال ٩) هي البداية تجاه هذه الأفكار. سيمون ماجس علم أن الله الآب خلق أينويا (Thought) – Ennioa وهي ظهور مؤنث لعقل الله الخارق الذكاء وخلقت أينويا الملائكة على درجاتهم وبالتالي الملائكة هم الذين خلقوا العالم المادي..... الخ. نادى سيمون بأن المادة شر ونجاسة وخطية ، والإله العظيم منزّه عن الاتصال بالمادة. لذلك فهو لم يخلق العالم بذاته إنما خلق آلهة أخرى هي التي خلقت العالم المادي ، وأكثر هذه الآلهة بعدًا عنه هو الإله الذي إتصل بالمادة وخلق العالم ، واعتقدوا أن الأرواح كانت موجودة في عالم سماوي منير ولكنها سقطت فجأة إلى الأرض وأصبحت سجينة الجسد المادي ، وتحتاج إلى من يخلصها من هذا الجسد المادي ، والخلاص يأتي عن طريق المعرفة.

وبالتالي وقف أمامهم سر التجسد كصخرة ، فكيف يتحد اللاهوت المنزّه عن المادة بالجسد المادي، ولذلك ادّعوا بأن جسد المسيح ليس هو جسدًا ماديًا إنما نزل من السماء وكان بمثابة رؤيا ، وبذلك أنكروا التجسد ، وفصلوا السيد المسيح عن بشريته ، وابعدوا الله عن الاتصال بالعالم. . في عام ١٩٤٥ تم اكتشاف مكتبة غنوسية زاخرة في نجع حمادي تشمل ٥١ مخطوطًا منها إنجيل الحقيقة ، وإنجيل توما ، وإنجيل فيلبس.

توجد في فكر الغنوسية أيضاً مشكلة أعمق من رفض سر التجسد وهى أن ليس الجميع سيخلصون فقط قلة قليلة التي ستقدر أن تمثل الأنسانية في صورتها الفائقة ـ وهو ما ينادي به اليوم شهود يهوه – بل تمادت في هذا ، قال أنجيل توما أن غالبية النساء في صورتهم الضعيفة لن يقدروا على تمثيل الأنسانية في صورتها الفائقة وبالتالي هم ليس قادرون على الخلاص.

ومن أمثلة الغنوسيين ساترنينوس أو الغنوسي الكبير الأول" كما سماه القديس يوستين الشهيد ، وكان تأثيره كبيراً على المجتمعات "اليهودية المسيحية" في آسيا. كتب عنه إيريناوس، أنه: "وضع الملائكة السبعة الذين يرأسهم إله اليهود في موقف العداوة من الإله

المحتجب. وقد خلق هؤلاء الملائكة الإنسان، ولكن هذا الإنسان بدأ يتخبط في الأرض حتى أعطاه الإله المحتجب قبساً من النور الذي يصدره... وقد أنكر ساترنينوس الزواج ووصفه بأنه جاء من الشيطان. وبعض تلاميذه امتنعوا عن أكل اللحم."

وأيضاً باسيليدس الاسكندري كان يرى الأمور من وجهة النظر اليهودية المسيحية ، ومع هذا كان ينادي بالحرية من الناموس. ولكي يفصل الله عن المادة قال إن الله خلق العقل ، ومن هذا العقل خرجت الملائكة والسموات وعددها ٣٦٥ في ترتيب تنازلي تنتهي بإله العهد القديم "يهوه" الذي خلق العالم المادي الذي يعيش فيه الجنس البشري. ولأن الله رأى الجنس البشري في حالة يأس ، فقد أرسل إليهم "العقل" الذي هو الابن ، كي يعطي المعرفة للخلاص للمختارين الروحيين فقط. كما يقول إن المسيح ظهر كإنسان ظاهرياً فقط وأنه لم يتألم أو يموت بل سمعان القيرواني هو الذي قُتل بدلاً عنه.

ومعهم فالنتينوس الذي قال: "ليست المعمودية فقط هي التي تحرر الإنسان ولكن المعرفة وكتاب "إنجيل الحق" الذي وُجد في نجع حمادي هو من كتاباته وتعاليمه أن الله كان موجوداً بنفسه بمفرده، وأراد أن لا يكون وحده فخلق اثنين من الأيونات هما العقل والحق... وهذان أنتجا زوجين آخرين هما الحياة العالمية وكنيسة الإنسان... وهكذا توالت الأيونات إلى أن تم ميلاد الأيون "يسوع" من العذراء مريم، الذي نقل المعرفة إلى جماعة أختارهم، وهؤلاء بدورهم أوصلوها إلى الأجيال الصالحة التي جاءت بعدهم. وعند الصلب إنفصل الأيون السماوي من الجسم الترابي الذي عاش فيه، وهكذا لم يصلب الأيون يسوع.

وظهرت الدوسيتية كفرع من الغنوسية ـ هي مشتقة من كلمة dokesis أي يظهر ـ في عصر رسل المسيح وتلاميذه وجاءت من خارج المسيحية بعيدة عن الإعلان الإلهي ، وخلطت بين الفكر الفلسفي اليوناني الوثني والمسيحية. ونادت بأن المسيح لم يكن إنساناً حقيقياً ولكنه ظهر كذلك. وهذا المفهوم جاء من التراث الفلسفي اليوناني والشرقي الذي كان يرفض فكرة أن يختلط الإله بالعالم المادي. وبنت أفكارها على أساس أن المادة شر. ونادت بأن الخلاص يتم بالتحرر من عبودية وقيود المادة والعودة إلى الروح الخالص السامي، وقالت أن الله غير مرئي وغير معروف وسامي وبعيد عن العالم ، ولما جاء المسيح الإله إلى العالم من عند هذا الإله السامي لم يأخذ جسدا حقيقيا من المادة التي هي شر لكي لا يفسد كمال لاهوته ، ولكنه جاء في شبه جسد. كان جسده مجرد خيال أو ظهور للجسد وظهر كإنسان. وبالتالي ظهر للناس وكأنه يأكل ويشرب ويتعب ويتألم ويُصلب ويموت لأن الطبيعة الإلهية بعيدة عن هذه الصفات البشرية.

ولذلك نجد الآباء الرسل قد تصدوا لها بقوة ، فمعلمنا بولس الرسول يؤكد "لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له" (١كو ٨: ٥) ولأن كل خليقة الله مقدسة وطاهرة استخدمت الكنيسة المادة في الأسرار المقدسة. فاستخدمت الماء في سر المعمودية والزيت في سر الميرون ومسحة المرضى والزيجة ، وعصير الكرم والحنطة في سر الافخارستيا.

وعندما انتشرت بعض الأفكار الغنوسية في كنيسة كولوسي ركز بولس الرسول في رسالته إليهم على كل من الطبيعة الإلهية والناسوتية للسيد المسيح فقال عن المسيح أنه هو صورة الله غير المنظور (كو ١: ١٥) وهو مذخّر فيه كل كنوز الحكمة والعلم (كو ٢: ٣) وفيه

حلّ كل ملء اللاهوت جسديًا (كو ٢: ٩) كما ركز أيضًا على حقيقية الناسوت بقوله "بدم صليبه" (كو ١: ٢٠) و"جسم بشريته" (كو ١: ٢٢)

أما يوحنا الحبيب فقد أكد على حقيقة التجسد حتى أنه قال " والكلمة صار جسدًا" (يو ١: ١٤) وقال عن السيد المسيح في رسالته "الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا" (١يو ١: ١) وأكد أن كل من ينكر التجسد فهو ليس من الله "كل روح يعترف بيسوع المسيح انه قد جاء في الجسد فهو من الله. (١يو ٤: ٢). وقد ذكرهم القديس أغناطيوس الإنطاكي (٣٥ – ١٠٧م) مُحذراً المؤمنين من أفكارهم الوثنية قائلا: "هو – السيد المسيح ـ إنما أحتمل الآلام لأجلنا لكي ننال الخلاص ، تألم حقا وقام حقا ، وآلامه لم تكن خيالا ، كما أدعى بعض غير المؤمنين ولو أن ربنا صنع ما صنعه في الخيال لا غير لكانت قيودي أيضا خيالا ". وأيضاً قال القديس جيروم (تنيح سنة ٤٢٠م) عن بداية ظهور فكرهم "بينما كان الرسل أحياء وكان دم المسيح لا يزال ساخنًا في اليهودية ، قيل أن جسده مجرد خيال".

أما المانوية فإنها تعد الشكل الأخير للغنوسية، والأشد خطورة، ونادى ماني بثنائية تتكون من عالم النور وعلى رأسه الإله الطيب مع ملائكته، وعالم الظلمة والمادة على رأسه القوى الوحشية التي لا يمكن السيطرة عليها أي إبليس، والإنسان نفسه جزء من عالم الظلمة وجسمه جزء من المادة الشريرة، وأدعى أن المسيح هو ابن الإنسان الأول، وهو روح الشمس لأنه يسكن في الشمس بقوته وفي القمر بحكمته.

ورد البابا أثناسيوس على المانويين بقوله "الذي يقول أن جسد الرب نزل من السماء وليس هو من مريم العذراء، أو أنه استحال اللاهوت إلى الناسوت، أو اختلط معه أو تغير، أو أن لاهوت الابن تألم ، أو أن الجسد الذي للرب غير مسجود له كأنه جسد إنسان فقط ، ولا يقول أنه مسجود له لأنه جسد الرب الإله، فهذا الكنيسة المقدسة تحرمه".